الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لا تتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

الوجه الآخر للمستشفى

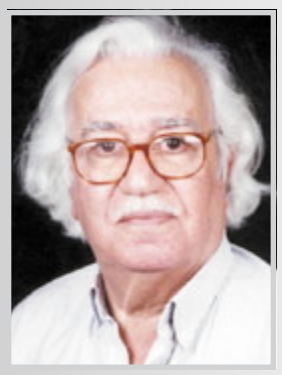

اسحاق الشيخ يعقوب

كاتب سعودي

ليست نظافة المستشفيات وحدها المطلوبة.. فهي لا تعني شيئا اذا وقفت على قدميها من دون نظافة النفس والروح والاداء والمعاملة والسلوك في العقل والجسد وفي نظافة العمل والاخلاص في المؤسسات المدنية.. فالمستشفيات تعد من أهم المؤسسات المدنية التي تقوم بمعالجة وتطبيب أبناء الوطن والحدب على علاجهم من الامراض والاصابات التي؟ ؟يتعرضون لها.. ولها دور في الوقاية ونشر الثقافة الصحية.. ولذا فإنها تشكل رافدا مهما في التنمية البشرية!!

لقد تأسست وتطورت مجمل الاكتشافات المبهرة في العلوم الصحية والمعارف العلاجية والابتكارات الطبية في مختلف الميادين العلاجية والوقائية والجراحية والنفسية في الدول الاوروبية المتطورة بعد ان تم فصل العلاقة المدنية عن العلاقة الدينية.. لأنه لا يمكن الخلط بين المرجعية الدينية في مؤسسها المطلق والمرجعية المدنية في مؤسسها النسبي المطلق ثابت في ذاكرة الماضي.. والنسبي معاصر يتجدد ويجدد التطور في الحياة المدنية.. المطلق تراكم منقطع في التاريخ والنسبي تراكم يتجدد ويتطور في التاريخ ويحرك التاريخ!!

ان يكون المرء متدينا فهذا شأن حر متاح للجميع في المجتمعات المدنية.. والمساجد والكنائس مشرعة الابواب لمن يريد ان يمارس طقوسه الدينية والمذهبية.. اما ادخال المعتقد الديني والمذهبي والطائفي في المؤسسة المدنية وفي الاداء الوظيفي كما هو حال بعض الموظفين العاملين في؟ ؟مستشفى السلمانية البحراني الذي تعالجت فيه مؤخرا من وعكة صحية.. فهذه ليست نقيصة مدنية اجتماعية فقط وانما تندرج ضمن النواقص الدينية التي تعيق سير الاداء المدني العلمي الطبي والعلاجي في المؤسسة المدنية الطبية التي تحدب على صحة وعافية وعلاج أبناء الوطن. فالمستشفى رحمة وتراحم للمرضى والدين الاسلامي رحمة وتراحم للجميع.. فلماذا يدخل التطرف والتشدد الديني على الخط ويعيق سير نهوض المجتمع المدني!

كانت شامخة الطول متقاطبة الحاجبين تقدمت الى سريري في مستشفى السلمانية ومدت انبوبة الدواء الى انفي من بعيد دون لمس الانف لتنزل قطرة واحدة في يمين مدخل الانف وقطرة اخرى في يساره.. وقد اخطأ الدواء الهدف لأنها - سامحها الله - ترى ان المرأة عورة.. ولا يجوز ان تلمس جزءا من جسد الرجل.. ان ثقافة التطرف الديني ترفض حتى ابتسامة المرأة دون ان تدري ان الابتسامة الصادقة بلسم شاف مساعد للدواء.. وهي لا تضع مزيلا لأن ثقافة التطرف الديني ترفض ذلك للنساء.. ولا يمكن لأحد ان ؟يتصور؟)نرسلا(عابسة لا تواسي مريضا بابتسامة تفرح قلبه وتبشره بالشفاء العاجل وتزيل عنه وعثاء القلق!!

واخرى كانت تضع آلة الضغط على زندي وهي تحاول بصعوبة ايصال سماعة النبض الى اذنيها من خلال الحجاب الذي يزم دوائر رأسها.. واحسب انه لا يمكن في هذه الحالة ان تأخذ ضربات النبض دليلا سويا في نبضها. ولا أدري كيف يمكن للطبيبة المنقبة ان تشمر عن ساعديها في اظهار منكبيها لعلاج الجرحى او المرضى.. يضحك محدثي الدكتور الذياتى لزيارتي وليس لعلاجي قائلا: مأساتنا في النهوض بمجتمعاتنا المدنية تكمن في هذين البعدين المعقدين.. جوهر البعد الديني؟ ؟وجوهر البعد المدني.. وعندما يتم فك الارتباط لهذين البعدين المتصادمين المتحاربين سوف يأخذ قطار الاصلاح مساره الصحيح على قضبان مؤسسات المجتمع المدني.. ويؤكد قائلا ؟: ؟ان بعض الاداريين والتنفيذيين في ادارة المستشفى تستهويهم العقيدة ويؤكد لي أحد الأطباء المطلعين على شؤون مستشفى السلمانية بأن الخطورة تتشكل في ضعف وهبوط الوعي الثقافي المدني والخلط بين الدولة والحكومة والسلطة وهنا نرى التراخي وعدم الاهتمام بالمؤسسات المدنية اذ لا ؟ يفرقون بينها وبين أجهزة السلطة الرسمية وكونهم معارضين للسلطة فإنهم ايضا معارضون بالضرورة لمؤسسات المجتمع المدني لاعتقادهم ان القطاع العام يرتبط بالسلطة الرسمية وينفذ أوامرها..وهذا لغط وافتراء وتضليل من بعض قيادات الجمعيات السياسية المذهبية والطائفية في الخلط بين الدولة والحكومة والسلطة.

أما واقع الامر فإن الدولة شاملة لنشاط المجتمع الديمقراطي وضمن القانون في المؤسسات المدنية وان مستشفى السلمانية مؤسسة مدنية في قطاع خدمات المواطنين وفي الحدب على علاجهم الصحي ؟والنفسي وان فوائد وعوائد انشطة المخلصين من الاطباء و(النرسات) والاداريين وعمال النظافة وموظفي؟ ؟النشاطات الاخرى كلها ترجع بالدرجة الاولى لأبناء الشعب البحراني .. واحسب ان السلطة السياسية ووزارة الصحة في هذا الوطن معنية بالدرجة الاولى في الحرص على تطهير وتنقية مؤسسات المجتمع المدني وقياداتها واداريها من مظاهر التخلف في اعاقة المنجز الطبي والعلمي والعلاجي في القطاع الصحي بشكل عام.

ترجمة القرآن الكريم.. من التحريم إلى الجواز

د. صلاح عبد الرزاق

باحث في الفكر الإسلامي المعاصر

الحاجة إلى ترجمة القرآن الكريم

بعث الله تعالى نبيه الكريم (ص) إلى الناس كافة. ومن الطبيعي أن يبلغ الوحي الإلهي المتجسد بالقرآن الكريم جميع الناس في العالم. ولما كان غالبية البشر لا يعرفون العربية، فلابد من ترجمة معانيه إلى لغاتهم كي يفهموا النص القرآني ويعرفوا أحكام الإسلام وعقائده وقصصه وحكمه وأمثاله وتعاليمه. وإذا كانت هذه القضية تثار بشكل عادي، فإنها في الأمس كانت موضع خلاف وصراع وجدل وسجال بين العلماء.

خلاف حول الترجمة

في عام ١٩٢٥ شهت مصر ضجة كبيرة بعد أن أوصت مشيخة الأزهر مصلحة الكمارك بإحراق ما ورد إليها من ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الإنكليزية. إذ أيد بعض الناس قرار الأزهر، وعارضه آخرون. وقد نشر الشيخ محمد شاكر وكيل الأزهر سابقاً كتيباً بعنوان (القول الفصل في ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأعجمية. تضمن الكتيب آراء وفتاوى الشيخ بحرمة ترجمة القرآن حيث يقول (فالحق الذي لا محيص عنه أنه لا يحل الإقدام على ترجمة القرآن إلى غير اللغة العربية، كما لا يحل الاقدام على تبديل أية كلمة من كلماته الشريفة بما يرادفها في العربية). ثم يلخص الشيخ رأيه بترجمة القرآن فيقول:

(لم يبق شك بعد الذي أسلفناه أن فقهاء الإسلام وأئمة الدين المجتهدين قد أجمعوا:

١- على تحريم قراءة القرآن بغير اللغة العربية وبغير النظم العربي المبين الذي نزل به الروح الأمين على قلب محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم.

٢- وعلى تحريم ترجمة القرآن الكريم إلى أية لغة أعجمية.

٣- وعلى تحريم كتابة المصاحف بهذه التراجم.

٤- وعلى تحريم تداول هذه التراجم بين من يحسن العربية ومن لا يحسنها من عامة المسلمين في أقطار المعمورة) (أحمد ابراهيم مهنا /دراسة في ترجمة القرآن الكريم)/ ص ١٨).

إن الترجمة التي يرى الشيخ أنها محرمة هي ترجمة حرفية بالمثل. وهي ترجمة غير ممكنة إطلاقاً لأنه لا يمكن ترجمة الآيات والكلمات القرآنية لتعطي نفس المعاني والإحساس والبلاغة في اللغات الأخرى. أما الترجمة التفسيرية فهي جائزة قطعاً لأنها تترجم معنى اللفظ القرآني حسب أقرب وأفضل الألفاظ المقابلة لها في تلك اللغة. فهي ليست ترجمة للفظ القرآني بل ترجمة لمعنى اللفظ. ولذلك صارت ترجمة القرآن يطلق عليها ترجمة معاني القرآن كي ينصرف الذهن إلى الترجمة التفسيرية وليس ترجمة اللفظ نفسه.

وقد عارض الشيخ بخيت المفتي الأسبق رأي الشيخ محمد شاكر والذي أفتى بوجوب ترجمة القرآن حيث كتب يقول (إن ترجمة القرآن للتعلم والتعليم والتفهم والتفهيم، والانذار والتبليغ ، قد أجازها الحنفية والحنابلة والشافعي). ثم يضيف معارضاً قرار المشيخة بإحراق النسخ القادمة من الخارج حيث يقول: (ولا تجوز مصادرة مصحف كتب فيه القرآن بالعربية وترجمته معه إلا بعد التحقق من خلل الترجمة وتغييرها لمعنى القرآن). ثم يستنتج قائلاً: (والذي أراه أن الترجمة على الوجه الذي بين في كتب الحنفية أصبحت الآن واجباً على الكفاية حفظاً للقرآن من تحريف معناه وترجمته على غير الصحيح وبغير المراد منه، وبحفظ القرآن يحفظ أساس الدين المتين) (المصدر السابق/ ص ٢٥).

وأثيرت قضية ترجمة القرآن في تركيا عام ١٩٣٢ عندما قرر أتاتورك ترجمة القرآن إلى اللغة التركية. وقد رافق تلك الخطوة استياء واسع في العالم الإسلامي لأنه جاء بعد إلغاء الخلافة عام ١٩٢٤ وإلغاء الحرف العربي واستخدام الحرف اللاتيني لكتابة اللغة التركية. وقد انقسم المسلمون إلى مؤيد ومعارض. فالمعارضون رأوا في ذلك الحدث حرماناً للأجيال التركية المسلمة من التواصل مع النص العربي للقرآن ، مما يفقهم الصلة بالمراجع والكتب العربية وخاصة كتب الفقه والتفسير والحديث والتاريخ. كما أن تضارب هذه الترجمات مع بعضها البعض سيفقد الثقة بالنص، وتضيع بذلك المفاهيم والأحكام. ولهذا هاجم هذا الفريق ترجمة القرآن لأنهم اعتبروها حلقة من الحملات على التراث الإسلامي. أما الفريق المؤيد للترجمة فقد اعتبرها وسيلة جيدة لفهم الدين وتعاليمه في شعب لا يعرف اللغة العربية ولا يفهم كتاب الله إذا تلي بها.

ودارت بين الفريقين مساجلات حادة في الصحف والمجلات، تبادلوا فيها شتى الاتهامات. فقد عارض الشيخ مصطفى صبري، وهو آخر شيخ للإسلام في الدولة العثمانية، ترجمة القرآن ، ونشر كتاباً بعنوان (مسألة ترجمة القرآن) تضمن رأياً مشابهاً لرأي الشيخ شاكر المذكور آنفاً.

أما الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر السابق فقد كتب مقالاً بعنوان (نقل معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية) صرح فيه بإمكانية نقل معاني القرآن إلى لغات أخرى مستنداً إلى رأي أبي إسحق الشاطبي في كتاب (الموافقات) الذي قال بأن ترجمة القرآن أي النظر إلى معانيه الأصلية ممكن. ثم استنتج الشيخ الخضر قائلاً: (وإذا كان نقل المعاني الأصلية قد يقع صحيحاً وكان في مستطاع من يجيد لغة أجنبية أن ينقل هذه المعاني من اللغة العربية إلى اللغة التي أجاد معرفتها، لم يبق سوى النظر في تفصيل حكم هذا النقل وبيان حال المنع منه أو الاذن فيه). وكغيره من العلماء المسلمين يرد الشيخ قراءة ترجمة القرآن في الصلاة.

وقد أثيرت القضية في مصر مرة ثالثة عام ١٩٣٦ بعد تولي الشيخ مصطفى المراغي مشيخة الأزهر للمرة الثانية. فقد رأى أن يقوم الأزهر بترجمة معاني القرآن إلى اللغة الإنكليزية. وقد عارضه كل من الشيخ محمد سليمان نائب المحكمة الشرعية العليا بمصر آنذاك والشيخ محمد مصطفى الشاطر قاضي المحكمة الشرعية . وقد كتب كل واحد منهما رده في كتاب مستقل، الأول بعنوان (حدث الأحداث في الإسلام: الإقدام على ترجمة القرآن)، والثاني بعنوان (القول السديد في حكم القرآن المجيد).

فتوى العلماء بجواز ترجمة القرآن

وصل الخلاف أشده بين المؤيدين والمعارضين لترجمة القرآن ، فقام جماعة من الفضلاء بتقديم استفتاء إلى كبار العلماء في مصر من مفتين ومشايخ وأساتذة وأعضاء جماعة كبار العلماء، ومن المذهبين الحنفي والحنبلي، جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

ما قول السادة حضرات أصحاب الفضيلة العلماء في السؤال الآتي بعد ملاحظة المقدمات الآتية:

١- لا شبهة في أن القرآن الكريم اسم للنظم العربي الذي نزل على سيدنا محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله.

٢- ولا شبهة أيضاً في أنه إذا عبر عن معاني القرآن الكريم بعد فهمها من النص العربي بأية لغة من اللغات لا تسمى هذه المعاني ولا العبارات التي تؤدي هذه المعاني قرآناً.

٣- ومما لا محل للخلاف فيه أيضاً أن الترجمة اللفظية بمعنى نقل المعاني مع خصائص النظم العربي المعجز مستحيلة.

٤- وضع الناس تراجم للقرآن الكريم بلغات مختلفة اشتملت على أخطاء كثيرة ، واعتمد على هذه التراجم بعض المسلمين الذين لا يعرفون العربية وبعض العلماء من غير المسلمين ممن يريد الوقوف على معاني القرآن الكريم.

٥- وقد دعا هذا التفكير في نقل معاني القرآن الكريم إلى اللغات الأخرى على الوجه الآتي:

يراد أولاً –فهم معاني القرآن الكريم بوساطة رجال من خيرة علماء الأزهر الشريف بعد الرجوع لآراء أئمة المفسرين وصوغ هذه المعاني بعبارات دقيقة محدودة ثم نقل المعاني التي فهمها العلماء إلى اللغات الأخرى بوساطة رجال موثوق بأمانتهم واقتدارهم في تلك اللغات بحيث يكون ما يفهم في تلك اللغات من المعاني هو ما تؤديه العبارات العربية التي يضعها العلماء.

فهل الاقدام على هذا العمل جائز شرعاً أو غير جائز؟

هذا مع العلم بأنه سيوضع تعريف شامل يتضمن أن الترجمة ليست قرآناً، وليس لها خصائص القرآن، وليست هي ترجمة كل المعاني التي فهمها العلماء، وأنه ستوضع الترجمة وحدها بجوار النص العربي للقرآن الكريم.

الفتوى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله. وبعد فقد اطلعنا على جميع ما ذكر بالاستفتاء المدون بباطن هذا.

ونفيد بأن الاقدام على الترجمة على الوجه المذكور تفصيلاً في السؤال جائز شرعاً. والله سبحانه وتعالى أعلم.

هذا وقد أيد الشيخ محمد مصطفى المراغي رئيس جماعة كبار العلماء آنذاك هذه الفتوى الأمر الذي شجع الحكومة على المضي قدماً في المشروع. فقد اجتمع مجلس الوزراء المصري بتاريخ ١٩٣٦/٤/١٦ وأقر إصدار ترجمة رسمية للقرآن الكريم تشرف عليها مشيخة الجامع الأزهر وبمساعدة وزارة المعارف.

آراء العلماء المعاصرين بترجمة القرآن

بعد أن بدأ الجامع الأزهر في الثلاثينيات من القرن العشرين، وهو واحد من أعرق الجامعات الإسلامية، بالسماح والإشراف على صدور ترجمات مختلفة للقرآن الكريم، لم تعد القضية مثار نقاش بين المسلمين في الوقت الحاضر، لكن ما زال البعض يطرح مثل هذا التساؤل خاصة في الدول الغربية حيث يعيش أكثر من ثلاثين مليون مسلم، كما اعتنق الإسلام أكثر من مائة ألف غربي.

يرى الشيخ عطية صقر، وهو من العلماء المعاصرين، أن الترجمة التي اتفق عليها العلماء (لا تسمى قرآناً له خصائصه ومزاياه وأحكامه الشرعية، ان الترجمة ليست كلام الله المنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم، بل هي كلام بشر، ولأن لغة الترجمة ليست هي العربية التي هي داخلة في كيان القرآن الكريم... والترجمة ليست معجزة، لأن مفهوم المعجزة يحمل على عدم قدرة أحد غير الله على صنعها، فما صنعه البشر –غير الله- يفقد معنى الاعجاز. وإذا كانت الترجمة لا تسمى قرآناً ولا تستلزم أحكامه من مثل التعبد بتلاوته، وعدم قراءته مع الجنابة، وصحة القسم به. فهي لا تغني عن القرآن أبداً). ويتساءل الشيخ صقر : إذا كانت ترجمة القرآن بهذه الخطورة فكيف نبلّغه للناس وقد أمر الله رسوله بتبليغه فقال (يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) (المائدة : ٦٧)، وقال (ص) (بلّغوا عني ولو آية)، وقال (ص) (ليبلّغ الشاهد منكم الغائب، فكيف نبلغه إلى غير العرب الذين لا يعرفون اللغة التي نزل بها القرآن وهي اللغة العربية؟. ثم يجيب الشيخ قائلاً: إن الله سبحانه وتعالى قال (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) (إبراهيم : ٤)، فالقرآن نزل بلغة العرب، وهم بدورهم يبلغونه للناس بألسنتهم المختلفة. ولا يتحتم أن يكون تبليغه بترجمته، بل يمكن تبليغ فحواه ومعناه بهذه الألسنة واللغات ، حتى إذا دخلوا في الدين وأرادوا التفقه فيه تعلموا لغة القرآن وقرأوه بها). ثم يضيف الشيخ صقر (من الواجب أن يقوم المسلمون بترجمة معاني القرآن الكريم تبليغاً للرسالة، وتصحيحاً للأخطاء التي وقعت في التراجم التي قام بها أجانب عن الإسلام، أو من لا يتقنون اللغة العربية ولا يعرفون أساليبها البلاغية).

ترجمات صادرة من مؤسسات إسلامية

تعتبر مؤسسة الجامع الأزهر صاحبة الريادة في الدول العربية في تناول قضية ترجمة القرآن إلى اللغات الأخرى. إذ أصدرت عدة ترجمات وبلغات عديدة كالانكليزية والفرنسية والروسية وغيرها. ولعل واحداً من إنجازات هذه المؤسسة العريقة هو إجازتها ترجمة معاني القرآن باللغة الصينية والتي اعدتها مجموعة من علماء الإسلام في الصين. وذكر تقرير لمجمع البحوث الإسلامية أن هذه الترجمة خالية من الأخطاء ، مؤكدا أن هذه الترجمة سوف تعمل على نشر الثقافة الإسلامية وتفسير القرآن بين المسلمين في الصين.

كما أجازت إدارة البحوث العلمية والافتاء والارشاد بالمملكة العربية السعودية ترجمة باللغة الإنكليزية لمعاني القرآن الكريم حيث صدرت عام ١٩٨٠, وقد اشرفت عليها مجموعة من المختصين العرب والهنود والباكستانيين. وتضمنت الترجمة النص العربي إلى جانب النص الإنكليزي. كما تضمن حاشية تكفلت بالتوضيحات الإضافية والاستعانة وبالأحاديث النبوية لتدعيم التفسير. وتضمنت فهرست بالموضوعات الواردة في القرآن وكيفية الوصول إليها من خلال ذكر رقم السورة والآية. وتضمنت الترجمة ملحقين الأول، قائمة بالمصطلحات العربية والاسلامية كالعيد والأذان والأحكام والجنب والجزية والكفارة والتشهد والتسليم وغيرها.

والملحق الآخر تضمن مواضيع ومفاهيم وعقائد مثلاً: لماذا أرسل الله الأنبياء والرسل؟ وشرح لمعاني التوحيد والشهادة والشرك والكفر والنفاق. كما لوحظ فيها مخاطبة العالم المسيحي حيث ورد موضوع بعنوان (محمد وعيسى في الإنجيل والقرآن) يؤكد بشرية المسيح وأنه ليس بإله مستنداً بنصوص من الكتاب المقدس.

واعتمدت مؤسسة الإمام الخوئي ترجمة م. هـ. شاكر ، وهي في الأصل ترجمة نشرتها مؤسسة حبيب اسماعيل الباكستانية في كراجي. كما أعيدت طباعتها من قبل المنظمة العالمية للخدمات الإسلامية في طهران. وقد حذف الناشر الهوامش التي وضعها المترجم. وتشير المقدمة إلى أن الحاجة قد أصبحت ماسة لتيسير وصول الوحي بين قراء الإنكليزية وخاصة أولئك الذين اعتنقوا الإسلام. تتضمن الترجمة النص العربي إلى جانب النص الانكليزي. كما تضمنت فهرساً بالمواضيع حسب ورودها في الآيات، ولائحة بأسماء الأنبياء ولفظها بالعربية وما يقابلها بالإنكليزية، مثلاً Dawood = ،Ayyub = Job David.ومما يعاب على هذه الترجمة أنه استخدم الترقيم الروماني للسور، وهو ترقيم قديم ((I, II, III, IV

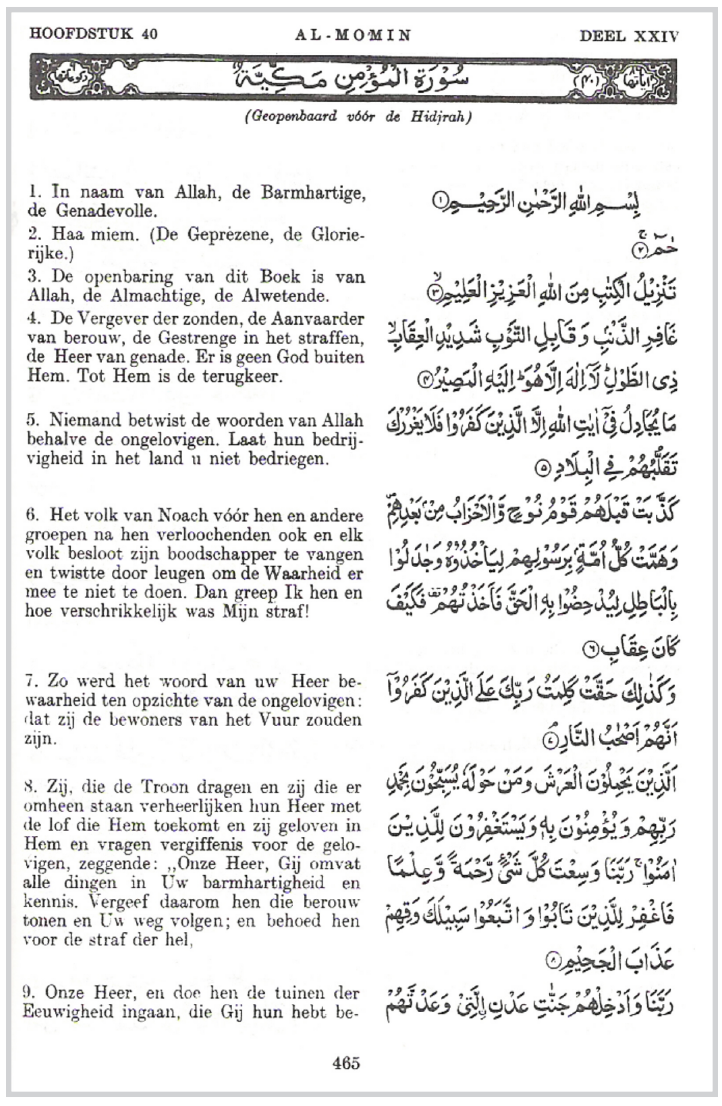

HOOFDSTUK 40 AL-MOMIN DEEL XXIV

سُورَةُ الْمُؤْمِنِ مَكِّيَّةٌ (٤٠)

(Geopenbaard vóór de Hidjrah)

1. In naam van Allah, de Barmhartige, de Genadevolle.
2. Haa miem. (De Geprézene, de Glorierijke.)
3. De openbaring van dit Boek is van Allah, de Almachtige, de Alwetende.
4. De Vergever der zonden, de Aanvaarder van berouw, de Gestrenge in het straffen, de Heer van genade. Er is geen God buiten Hem. Tot Hem is de terugkeer.
5. Niemand betwist de woorden van Allah behalve de ongelovigen. Laat hun bedrijvigheid in het land u niet bedriegen.
6. Het volk van Noach vóór hen en andere groepen na hen verloochenden ook en elk volk besloot zijn boodschapper te vangen en twistte door leugen om de Waarheid er mee te niet te doen. Dan greep Ik hen en hoe verschrikkelijk was Mijn straf!
7. Zo werd het woord van uw Heer bewaarheid ten opzichte van de ongelovigen: dat zij de bewoners van het Vuur zouden zijn.
8. Zij, die de Troon dragen en zij die er omheen staan verheerlijken hun Heer met de lof die Hem toekomt en zij geloven in Hem en vragen vergiffenis voor de gelovigen, zeggende: „Onze Heer, Gij omvat alle dingen in Uw barmhartigheid en kennis. Vergeef daarom hen die berouw tonen en Uw weg volgen; en behoed hen voor de straf der hel,
9. Onze Heer, en doe hen de tuinen der Eeuwigheid ingaan, die Gij hun hebt be-

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ①

حٰمٓ ②

تَنْزِيلُ الْكِتٰبِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ③

غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ

ذِي الطَّوْلِ لَآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ④

مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ

تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ⑤

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ

وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا

بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ

كَانَ عِقَابِ ⑥

وَكَذٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا

أَنَّهُمْ أَصْحٰبُ النَّارِ ⑦

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ

رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ

آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا

فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ

عَذَابَ الْجَحِيمِ ⑧

رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنّٰتِ عَدْنِ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ

465

بعد عقد من أزمتها النقدية.. آسيا تعلمت الدرس

د. عبدالله المدني

اكاديمي - البحرين

بعد عشر سنوات من أزمتها المالية الصاعقة، تبدو معظم دول الشرق الأقصى في وضع اقتصادي مريح، و بما يمكن معه القول أنها تجاوزت آثار و تداعيات تلك الكبوة نهائيا وعادت تمارس بقوة طموحاتها في النهضة و الرخاء و الريادة على مختلف الصعد. فاحتياطي المنطقة من العملات الاجنبية يزيد اليوم على ٣ تريليونات دولار، و رؤوس الأموال المتدفقة عليها تفوق تلك المتوجهة إلى الدول المتقدمة بنحو ستة أضعاف، و صادراتها الخارجية تمثل حصة كبيرة و متزايدة من إجمالي التجارة العالمية، و معدلات نمو اقتصادياتها تتراوح ما بين ٥ إلى ٩ بالمئة. باختصار شديد تبدو المنطقة متجهة إلى ممارسة نفوذ اقتصادي و مالي هائل على مستوى العالم.

وللتذكير فقط، نقول أن الأزمة النقدية الآسيوية بدأت في مثل هذه الأيام من عام ١٩٩٧ و تحديدا من تايلاند التي تراجعت قيمة عملتها الوطنية (البات) أمام الدولار الأمريكي إلى أدنى المستويات وبصورة مفاجئة و غير مسبوقة، لتتبعها في ذلك عملات معظم دول جنوب و شمال شرق آسيا، وليتسبب الحدث في انهيار أسواق المال و الأعمال الآسيوية و تراجع قيمة الأصول، و بالتالي إفلاس العديد من المصارف و المؤسسات الاقتصادية و إفقار الملايين من أبناء الطبقة الوسطى. بل كان للحدث تداعيات مالية خطيرة، امتدت إلى أسعار النفط التي تراجعت إلى مستويات دنيا، وشعرت بها دول خارج المنظومة الآسيوية مثل الولايات المتحدة و روسيا الاتحادية و البرازيل وغيرها كنتيجة لترابط الاقتصاد العالمي. هذا ناهيك عن التداعيات السياسية التي كان من ابرز تجلياتها سقوط أنظمة عتيدة مثل نظام الجنرال احمد سوهارتو الديكتاتوري في اندونيسيا، و رحيل حكومات مثل حكومة الجنرال المتقاعد القوي "تشافاليت يونغتشايود" في تايلاند.

كنت بعيد وقوع الأزمة بفترة قصيرة في جولة آسيوية بدأت في تايلاند و انتهت في كوريا الجنوبية، فأيقنت أن ما حدث مجرد كبوة ستنهض منها المنطقة سريعا، خلافا لتوقعات الكثيرين، ومنهم مراقبون عرب ظهروا كمن كان ينتظر مثل هذا الحدث ليؤكد بشماتة أن النمور الآسيوية لم تكن سوى نمور من ورق. أما سبب يقيني فكانت مشاهد لا تخطئها العين في كل موقع، و كلها كانت تنم عن الإصرار و العزيمة على العمل من اجل تجاوز تلك المرحلة العصيبة وفق خطط عملية ومراحل مفصلة و إجراءات حاسمة لا مكان فيها للتردد و الجدل العقيم.

لم يكن ذلك بطبيعة الحال مستغربا عند من عرف آسيا و عاش فيها. فميزة هذه الأمم الصفراء أنها تتعلم الدرس سريعا و تحول إخفاقاتها في كل مرة إلى نجاحات مشهودة في فترة زمنية قياسية، يساعدها على ذلك منظومتها الفكرية و الاجتماعية التي تقدس العمل بدلا من الشعارات الجوفاء، وتفضل التخطيط العلمي على المشاريع المرتجلة، وتنظر إلى المستقبل عوضا عن البكاء على الماضي و لبنه المسكوب أو الجدل العقيم حول الأمور الخلافية النافرة من بطون التاريخ.

وهذا ما حدث بالضبط في تايلاند و ماليزيا و سنغافورة واندونيسيا و الفلبين و كوريا الجنوبية وتايوان التي أصابها الضرر الأكبر، و إن بدرجات غير متساوية بحكم اختلاف هياكلها و قوتها الاقتصادية. حيث تمت المسارعة أولا إلى تشخيص الأمراض التي أدت إلى الأزمة و الاعتراف بها بعيدا عن المكابرة أو اللجوء إلى نظرية المؤامرة التي لم تتمسك بها سوى قلة قليلة، ثم جاء العلاج في صورة ضخ قروض و مساعدات لإنقاذ الشركات و المصارف من عثراتها، و إطلاق حزمة من الإصلاحات الاقتصادية و القانونية من اجل مجتمع مالي أكثر شفافية، مع تطبيق مجموعة من القواعد و الإجراءات الهادفة إلى إعادة هيكلة و بعض المؤسسات و الأجهزة المالية، و ضبط أعمال المصارف، وتحسين أداء الشركات، و خفض الإنفاق الحكومي، و رفع معدلات الفائدة، وفرض الرقابة على تحركات رؤوس الأموال، و غير ذلك مما اقترحته المؤسسات المالية العالمية كصندوق النقد الدولي الذي سارع إلى تخصيص قروض طارئة بعشرات المليارات من الدولارات لعدد من الدول الآسيوية المتضررة.

على أن العامل الأكثر حسما في سرعة نهوض هذه الأمم من كبوتها تلك، كان وجود ثروة بشرية مؤهلة تأهيلا عاليا وقادرا على القيام بمستلزمات إعادة البناء و تصحيح الخلل، كنتيجة لاستثمار حكوماتها الطويل في التعليم وتنمية الموارد البشرية و إعداد الكوادر المتخصصة في شتى حقول المعرفة، وبصورة منهجية و متوافقة مع حاجات العصر و تطوراته. و لسنا هنا بحاجة إلى إعادة التأكيد على أن المجتمعات الزاخرة بالكفاءات و الطاقات و المواهب و العقول الخلاقة و المشبعة بقيم العمل و التكافل و احترام القانون، هي مجتمعات لا خوف عليها من الأزمات و الكبوات مهما كانت تلك الأزمات صاعقة و مؤلمة.

و نختتم بالحملات الإعلامية الجميلة التي دشنتها حكومات المنطقة في السنوات التالية مباشرة للحدث العاصف، من اجل خلق حالة من الثقة في أوساط العامة بالقدرة على الصمود و تجاوز ما وقع، و التي لعبت بالفعل دورا في شحن النفوس بالأمل بفضل ما استثمر فيها من فنون وإبداع. من تلك الحملات ما قامت به حكومة "تشوان ليكباي" في تايلاند، التي نصبت يافطات كبيرة في الميادين العامة في طول البلاد وعرضها، لتعكس بالرسوم ظروف المرحلة و تفاصيلها و ذلك عبر تقسيم كل يافطة إلى أربعة مربعات يحكي كل منها مشهدا و تطورا نحو الخروج من الأزمة. ففي المربع الخاص بعام ١٩٩٧ كان المشهد رعدا و برقا و عواصف كناية عن سوداوية الأوضاع، وفي المربع الثاني الخاص بعام ١٩٩٨ تغير المشهد إلى أمطار رعدية كناية عن توجه الأحوال نحو الأفضل، و في مربع العام التالي ظهرت السماء خالية إلا من بعض السحب. أما المربع الأخير الخاص بعام ٢٠٠٠ و الذي خطط له ليكون عام وقوف الاقتصاد مجددا على قدميه –و هو ما حدث بالفعل – فكانت تتوسطه شمس مشرقة كناية عن انتهاء المحنة.